صُوَرُ الحذْفِ في الحديث النبويّ ودوره في تحقيق ترابط بنيته واستمرارية دلالتـه– حديـث «عَلَى كُـلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ» أنموذجًا

The delete forms in Prophet's Hadith and its role in making cohesion of its structure and continuing of its significance – The Hadith "Ala Kolli Moslemen Sadaka" as a sample

د عبد الحميد بوترعه*

جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي الجزائر

hamid752007@yahoo.com

تاريخ الإرسال:.2022/01/15	تاريخ القبول:2022/04/06	تاريخ النشر:2022/06/10

ملخّص:

الحذف هو وسيلة من وسائل الاقتصاد في اللغة، والترابط في بنية النص العربيّ عامّةً، والنصّ النبويّ خاصّة. إذْ نُسَلّطُ الضوءَ في مقالنا هذا على هذا المفهوم "الحذف" من منظور لساني نصّي من خلال العمل على الكشف عن حضُوره كظاهرةٍ بلاغيّةٍ، ومفهومٍ نحويٍّ، وأداةٍ نصيّةٍ في الحديث النبويّ الشريف، ومدى إسهامه في تحقيق الترابط في بنيته والاستمرارية في دلالته. فاتخذْنَا النصّ النبويّ :« عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ » أنموذجًا في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية:

الحذف، الترابط، الدلالة، الحديث النبويّ.

الملخص باللغة الأجنبية :

Abstract:

Deletion is a means of economy in language., interdependence in the structure of the Arabic text in general, And the prophetic text is special. In this article, we highlight this concept of "deletion" from the perspective of a script tongue By revealing his presence as a rhetorical

* المؤلف المرسل د عبد الحميد بوترعه

phenomenon, a grammatical concept and a text device in Prophet's Hadith, and the extent to which it contributes to coherence in its structure and continuity in its significance. We took the prophetic text « Ala Kolli Moslemen Sadaka » A model of this study .
keywords:
Deletion, cohesion, significance, Prophet's Hadith .

1. مقدّمة:

ظاهرة الحذف قديمة قِدَم اللّغة نفسها، فما مِنْ لغويّ أو نحويّ أو بلاغيّ من القدماء إلاّ تناول ظاهرة الحذف بصُوَرِها المختلفة غير أنّ معظم الدارسين عالجوا هذه القضية في الدراسات اللغويّة بوجه عام، وبعضهم تناول الحذف في القرآن الكريم أو في نصوص أخرى مختلفة إلاّ أنّ توجُّهَ الاهتمام بالظاهرة لم يكنْ مُرَكَّزًا على ربْطِها – الحذف – بالقضايا النصيّة كأداة من أدوات الربط النصيّ العاملة على تماسك النص وانسجامه. (محمد عبد الراضي، 2010م، ص48. الفقي،1431هـ/2000م،191)

فالحذف ميزة بلاغية وظاهرة أسلوبية وأداة نصية في اللغة بما يحقّقه كصورة من صُوَر الإيجاز في اللفظ، ووسيلة من وسائل الاقتصاد في اللغة، فضْلاً عنْ أثره في بنية النص العربيّ عامّةً، والنصّ النبويّ خاصّة لاسيما فيمَا تحمله البلاغةُ النبويّةُ منْ حُسْن سبْكٍ في التركِيب وجماليّةٍ في الأسلوب ودقّةٍ في الدلالةِ وقوّةٍ في الطرْح.

من هنا نُسَلّطُ الضوءَ في هذا المقال على هذا المفهوم "الحذف" من منظور لساني نصّي من خلال العمل على الكشف عن حضوره كظاهرة بلاغيّة، ومفهومٍ نحويٍّ، وأداةٍ نصيّةٍ في نصّ الحديث النبويّ الشريف، ومدى إسهامه في تحقيق الترابط في بنيته والاستمرارية في دلالته. فكان حديثه صلّى الله عليه وسلّم :« عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ » الحديث الأخير الوارد في باب بيان كثرة طرق الخير محلّ دراستنا وتحليلنا باعتباره أنموذجا للكشف عن هذه الأداة النصّية والظاهرة البلاغية في الخطاب النبويّ معتمدين في ذلك على المنهج الوصفيّ المشفوع بالتحليل، وقد انبنى على الإشكالية الآتية:

– ما مفهوم الحذف وما دوْرهُ في اتّساق النصّ ؟ وكيف كان حضوره في حديث "عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ" وأثره في ترابط بنيته واستمرارية دلالته؟ والتي بدورها تفرّعت إلى جملة من التساؤلات أهمّها:

– ما مفهوم الحذف لغة واصطلاحًا؟

– ما هي أنواعه؟

– ما فوائدُ الحذْف ودوْرُهُ في اتّساق النصّ؟

– ما المعنى الإجمالي الذي يرشد إليه هذا الحديث الشريف؟

– ما صُوَرُ الحذف وأثرُه في الحديث النبويّ؟

2. تعريف الحذف:

1.2 لغة:

جاء في اللّسان: حذَف الشيء يحذِفُه حذْفًا: قَطَعَه من طرفه، والحجّام يحذفُ الشَّعْر منْ ذلكَ، والحُذَافة: مَا حُذِفَ منْ شيءٍ فطُرِحَ. قالَ الجوهريّ: حذف الشيء وإسقاطه، ومنْهُ حذفْتُ من شَعْري ومِنْ ذنْب الدّابة أيْ أخذْتُ. (ابن منظور، 1419هـ/1999م، ص93) وحذَّف الخطيبُ الكلامَ: هذَّبَه وصفَّاه. احْتذَفَ الثّوْب ونحوه: قطع بعضه. والحُذَافة: ما حُذِف فطُرِح. والشيء القليل يُقَالُ: في رحله حُذَافةٌ: شيء من الطعام. (مصطفى وآخرون، 1972م، ص206). فالحذْفُ إذنْ دَارَ حوْل القطْع، والطرْح والإسْقاط، والتَّخْفيف، والتَّسْوية، والصِّناعة، والتهذيب.

2.2اصطلاحا:

عرّف العلماء نحاة وبلاغيين ونصّانيين من العرب والغربيين الحذفَ تعريفاتٍ عديدة، ومن ذلك:

- من القدامى عرّف عبد القاهر الجرجاني الحذْف في قوْله: « هو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسّحْر، فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدُك أنطق ما تكون إذا لم تنطقْ وأتمّ مَا تكونُ بيانًا إذَا لمْ تُبَيِّنْ... ». (الجرجاني، دت، ص146)

والإيجاز بالحذف على حدّ قول القزويني ما يكون بحذف – والمحذوف إمّا جزء جملة، أو جملة، أو أكثر من جملة، كحذف المضاف في قوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ (سورة يوسف، الآية 82) أيْ أهلها. وكقوْلِهِ تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ**﴾ (سورة المائدة، الآية3) أي تناولها. (القزويني،2003م/1424هـ، ص145).

- أمّا من المحدثين فنجد محمد الشاوش قد وقف على الحذف في النظرية النحوية العربية من خلال المصطلح والمفهوم، وعلاقة مصطلح الحذف بالظواهر القريبة منه أو المقابلة له، وممّا ذكَرهُ أنّ سيبويه عدّ الحذْف تحت ما يُسمَّى "الإضمار دون علامة"، وهو عنده أيضا "الترك"، أوْ ترك الذكر « وقد وجدنا عند سيبويه مراوحة بين مصطلحي الحذف والإضمار دون علامة، زيادة على استعماله للإضمار بعلامة، وهو يعني به استعمال الضمير بدل الاسم وقدْ بدا لنا أنّه لم يكن يستعمل الحذف والإضمار دون علامة على الترادف، فالإضمار دون علامة يوافق عنده تغييب العنصر من اللفظ دون النية، وهو ما سيطلق عليه النحاة اللاحقون اسم "حذف المراد". أمّا الحذف فهو من قبيل تغييب العنصر من اللفظ والنّية، وهو ما يُسَمَّى لاحقًا "حذف غير المراد"». (الشاوش،1421هـ/2001م، ص1134) أمّا طاهر سليمان حمودة فقد عرض للحذف انطلاقًا من حاجة الإنسان إليه وهو ظاهرة لغويّة تشترك فيها اللغات الإنسانية فيقول «

الحذف ظاهرة لغويّة تشترك فيها اللغات الإنسانية، حيث يميل الناطقون إلى حذف بعض العناصر المكرّرة في الكلام، أوْ إلى حذف ما قد يمكن للسامع فهمه اعتمادًا على القرائن المصاحبة حالية كانت أو عقلية أو لفظية...». (حمودة،1998م، ص4)

أمّا "دي بوجراند" فعرّف الحذف مُشِيرًا إلى تسميته أحيانا "الاكتفاء بالمبنى العدمي Substitions by zero" في قوله:

« إنّ البنيات السطحية في النصوص غير مكتملة غالبًا بعكس ما قد يبدو في تقدير الناظر، وفي النظريات اللغويّة التي تضع حُدودًا واضحةً للصواب النحويّ أو المنطقيّ يتكاثر بحكم الضرورة نظرها إلى العبارات بوصفها مشتملة على حذف بحسب ما يقضي مبدأ حسن السبك ». (دي بوجراند ، 1418هـ/1998م، ص340)

وبيّن أهميّة حضور الحذف بين المتكلم والمستمع في القول وفي الفهم، إذْ قال: « إنّه من غير المعقول بالنسبة للناس أنْ يُحوّلوا كلّ شيء يقولونه، أو يفهمونه إلى جمل كاملة، فلو فعلوا ذلك لكانَ أوْلى بهم أنْ يفضّلُوا أنْ يتكلّمُوا بجُمَلٍ تامّةٍ أكثر كثيرًا ممّا يفعلون . فالاكتمال النحويّ يُنْتج تراكيب لا فائدة فيها ولا وضوح ». (دي بوجراند، 1418هـ/1998م، ص341)

أمّا الحذف عند "هاليداي" و "رقية حسن" هو علاقة داخل النص إذْ يوجد العنصر المفترَض في النص السابق ممّا يعني أنّ الحذف عادة علاقة قبليّة، غيْر أنّه يختلفُ عن الاستبدال كوْنُه استبدالاً بالصفر عكس الاستبدال الذي يترك أثرًا، بيْنما علاقة الحذف لا تُخَلِّفُ أثرًا، فالمستبدَل– أوْ العنصر البديل– يبقى مُؤَشِّرًا يسترشدُ به القارئ للبحْث عن العنْصر المُفْتَرض ممّا يمكنُّه منْ ملْء الفراغ الذي يخْلقُهُ الاستبدال، بيْنما الأمر على خلاف هذا في الحذْف إذْ لا يحلّ محلّ المحذوف أيُّ شيء، فيُوجِدُ بذلك في الجملة الثانية فرَاغًا بنيويًّا يهتدي القارئ إلى ملْئه اعتمادًا على ما ورد في الجملة الأولى أوْ النصّ السابق. (خطابي، 2006م، ص21)

وقد حَدَّدَ الباحثان أهميّة الحذْف في تحقيق اتّساق النص في العلاقة بين الجمل وليس داخل الجملة الواحدة لأنّ العلاقة بين طرفي الجملة علاقة بنيوية لا يقوم فيها الحذف بأيّ دور اتساقي. (خطابي، 2006م، ص22) هذا ما وضّحهُ أيْضًا عزة شبل محمد حين ذكر أنّ الحذف يظهر عندما تشتمل عملية فهم النص على إمكانية إدراك الانقطاع على مستوى سطح النص، حيث نفترض عنصرا سابقا يُعَدُّ مصْدَرًا للمعلومة المفقودة، فيترك العنصر المحذوف فجوة (gap) على مستوى البنية التركيبية، يمكن ملؤها من مكان آخر في النص. (عزة شبل، 1430هـ/2009م، ص115–116)

3. أنواع الحذف:

لقد تعدّدت تصنيفات الحذف تعدُّدًا يحمل معه ثراء هذه الظاهرة اللغوية وأهمية لها في اللغة تنظيرا واستعمالا إذْ لمْ يكنْ الحذف في مصنّفات النحو مستقّلاً بمبحثٍ خاصٍ، بلْ هو راجعٌ إلى تقاطع بيْن ما اختاروه لمصنّفاتهم عن أصول التبويب والترتيب، وإدراكهم لطبيعة الظواهر التي لم يفردوها بأبواب خاصّة. (الشاوش،1421هـ/2001م، 1139)

فالحذف يقع عند "هالداي" و"رقية حسن" تحت ثلاثة أنواع: الحذف الاسمي، الحذف الفعلي، الحذف الجملي. مع توجُّه الاهتمام الأكبر نحو العلاقات بين الجمل، ذلك أنّ الحذف باعتباره شكلاً منْ أشْكال العلاقة بيْن الجمل سمة أساسية من سمات النصية Texture، وهو ما لا يحقّقُهُ الحذْف على مستوى الجمْلة الوَاحدة. (عزة شبل،1430هـ/2009م، ص118)

- فالحذف الاسمي: حذْف داخل المركّب الاسميّ، مثل: محمد لم يعرفْ ø هلْ فَعَل ø؟
- الحذف الفعليّ: الحذف داخل المركّب الفعليّ، مثل: هل أنت تعوم ؟ نعم ø .
- الحذف الجملي: حذف جملة، أو شبه جملة، أو أكثر من جملة، ومن المواضع التي يكثر فيها هذا الحذف الأسئلة التي يجاب عنها بـ (نعم) أو (لا). مثال ذلك: (هل ستأتي؟ – نعم ø) و(هل أنت عليّ؟ – لا ø)، أو جملة الاستفهام أو جواب الاستفهام، إذ يمثّل الاستفهام الدرجة القصوى للحذف المعجميّ تبعًا للمفترض مُقَدَّمًا في تلك الجمل الاستفهامية. (عزة شبل،1430هـ/2009م، ص118. خطابي،2006م، ص22. الفقي، 1431هـ/2000م، ص193–196)

فهذا التصنيف الثلاثي سنتّخذه في دراسة وتحليل هذا الحديث النبويّ مع تأكيدنا على الأثر الذي تُحْدِثُه هذه الأنماط من الحذف في تماسك النصّ بنية ودلالة.

4. فوائدُ الحذْف ودوْرُهُ في اتّساق النصّ:

للحذْف دورٌ كبيرٌ في بناء النص وترابط أجزائه، وجمال أسلوبه، وتحقيق غاياته، ولم يلجأ المتكلم إلى الحذف لتحقيق خللٍ ما في النصّ، بلْ على العكس فلِلْحذْف جمالياتٌ وأغراضٌ كثيرةٌ، ويمكن عرْضُها فيما يأتي:

1– ذكر الإمام السيوطي فوائد عديدة للحذف منها:

مجرّد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهور المحذوف، ومنها التنبيه على أنّ الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم، كما هو باب التحذير والإغراء. (السيوطي، دت، ص377)

2- التفخيم والإعظام إذ قال الزركشي: « التفخْيم والإعظام لما فيه من الإبهام لذهاب الذهن في كل مذهب، وتشوفه إلى ما هو المراد، فيرجع قاصرا عن إدراكه، فعند ذلك يعظم شأنه، ويعلو في النفس مكانه...»،(الزركشي، دت، ص104) زيادة على ذلك فقد ذكر الزركشي أنّ في الحذف زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وكلّما كان الشعور بالمحذوف أعْسَرَ كان الالتذاذ به أشدّ وأحْسَنَ .كمَا أنّ فيه أيضا طلبا للإيجاز والاختصار، وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل. (الزركشي، دت، ص104-105)

3- إذا كان الحذف على مستوى الجملة يراعي القرائن المعنويّة والمقاليّة فلا شكّ أنّ نحو النص أكثر اعتمادا على ذلك لأنّه يدخل السياق والمقام من أساسيات الحذف، حيث تكون الجمل المحذوفة أساسا للربط بين أجزاء النص من خلال المحتوى الدلالي. (عفيفي، 2001م، ص125)

4- إنّ مفهوم المقولة الفارغة حسب ما ذهب تشومسكي يؤدّي دورا رئيسا وأساسيا في مبدأ الربط، وأنّ هذه المقولة الفارغة تعتمد على مبدأ هام، هو مبدأ "الإسقاط" الذي ينص بأنّ الأبنية المعجميّة يجب تمثيلها مقوليًّا في كلّ مستوى تركيبي، مبدأ "الإسقاط" الذي يُسْهِم في الاستغناء عن قواعد بنية العبارة محليّة فيما عدا بعض الخصوصيات المتعلّقة بكلّ لغة على حدة، فإذا ما تصوَّر وجود عنصر ما في موقع معين فإنّه حينئذٍ في مكان ما في التمثيل التركيبي، إمّا كمقولة ظاهرة، أو كمقولة فارغة لا يتحدَّدُ لها أيّ شكْل صوْتي. (البهنساوي، 2003م/1423هـ، ص32)

5- يعمل الحذف كواحد من أدوات الاتساق النصي على تحقيق تماسك النص لأنّ وجود دليل مقاليّ أو مقاميّ على المحذوف يُحَقِّقُ المرجعيّة بيْن المذكور والمحذوف في أكثرَ منْ جملةٍ إضافة إلى هذا فهو قد يُحَقِّقُ التكرار باللفظ والمعنى، أوْ بالمعنى دون اللّفْظ فتكون بذلك الاستمراريّة الدلاليّة للنص قائمة باستمرار المعنى عبْر تكراره، ممّا ينشأ عنْهُ استمرار التواصل عبْر دلالات الغياب، وتوجيه اهتمامات المتلقّي إلى دلالات الحضور. (عزة شبل،1430هـ/2009م، ص173)

5. نصّ الحديث النبويّ:

عنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النبيّ ε قَالَ:« عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ ». فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: « يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ ». قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: « يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ ». قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ . قَالَ: « فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ » (البخاري،1430 هـ/ 2010م، ص175)

1.5 المعنى الإجماليّ للحديث:

يُرشدنا هذا الحديث الشريف إلى الحثّ على الصدقة، والصدقة هذه صدقة متنوّعةٌ ليستْ مقصورةً في المال أو العطية، بلْ هي أعمّ منْ ذلك، ولوْ بالعمل لنفْع نفسه وغيره، أوْ بإعانة الملهوف ذا الحاجة، أوْ بالأمر بالمعروف والإمساك عن الشر، والنهي عن المنكر، وكلّ شيء يقرّبُ إلى الله Y منْ قولٍ أوْ فعلٍ فهو صدقةٌ، وهذه الصدقة على سبيل الاستحْباب المتأكّد فلا حقّ في المال سوى الزكاة إلاّ سبيل الندب. (الشنواني، (دت)، ص151-152. والعثيمين، 1425هـ، ص155- 207. والقسطلاني، 1323هـ، ص38) قال ابن بطال: وهو مثل قوله υ « على كلّ سُلامى من الناس صدقة* » أيْ أنّهم مندوبون إلى ذلك، فإنْ قيل: كيف يكون إمساكه عن الشرّ صدقة ؟ قيل: إذا أمسك شرّه عن غيره، فكأنّه قدْ تصدّق عليه بالسَّلامة منه، وإنْ كان شرًّا لا يعدو نفسه؛ فقد تصدق بأن منعها من الإثم. (ابن بطال، دت، ص443. ومسلم، 1347هـ/1929م، ص93)

وَذَكَرَ العسقلاني أنَّ ليس في قولهم –الصحابة– (فمَنْ لم يجدْ) ترتيبًا، إنّما هو للإيضاح لم يفعله من عجز عن خصلة من الخصال المذكورة فإنّه يمكنه خصلة أخرى، فمَنْ أمكنه أنْ يعمل بيده فيتصدّق، وأنْ يُغيث الملهوف، وأنْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويمسك عن الشرّ فليفعل الجميع، ويُفْهَم مِنْ هذا أنّ الصدقة في حقّ القادر عليها أفضلُ من الأعمال القاصرة. (العسقلاني، 2012م، ص398)

2.5 صُوَرُ الحذف وأثرُه في الحديث النبويّ:

تَكوَّن هذا الحديث النبويّ الشريف منْ أرْبعة مقاطعَ، شَكّلتْ متواليات جمليةً يرتبطُ اللاّحقُ منْها بالسابق على تدرُّجٍ وانتظامٍ، بُنِيت على الحوار، الحوار القائم –في معظمه– على الإيجاز والتركيز، لأنَّ طول العبارة الحواريّة يُميتُ حيوية الحوار، كمَا أنّ من طبيعة الحوار الاعتماد على المراجعة، فهو يكمِّلُ بعْضَه بعضًا، فمَا ورَدَ في كلام أحد المتحاورِيْن يبني الآخر عليه كلامه. (شبايك، دت، ص 156)

كمَا بُنِيَ هذا النص على الاستفهام بالسؤال والجواب، حثَّ ρ الصحابة على الصدقة، وسؤالهم المتعدّد والمكرّر على ما ينبغي فعله حين التعذّر أوْ العجْز عن ذلك (فمنْ لمْ يجدْ ؟)، منْ ثمَّ يأتي جوابُه لهم عقِبَ كلّ سُؤالٍ توجيهًا وإرْشادًا إلى أبْواب الصدقة الواسعة، وفعل الخير المتنوّع. أضِفْ إلى ذلك فهذا النصّ الحديثيّ اتّسم بالتوالُد والتصعيد، توالدٌ عن طريق التساؤل الذي يصعِّدُ الحوار والحدث نحو الأسفل من الأكبر إلى الأصغر. (عتر، 1434هـ/ 2013م، ص177، 373)

ومن الأفْضل إلى الأقلّ فضْلاً، كلّ فكرةٍ تؤدّي إلى التي تليها بواسطة السؤال:

قال رسول الله ﷺ [على كل مسلم صدقة] ⇐ قالوا: [يا نبي الله، فمن لم يجدْ؟].
قال: [يعمل بيده فينتفع نفسه ويتصدّق] ⇐ قالوا: [فإن لم يجدْ؟].
قال: [يعين ذا الحاجة الملهوف] ⇐ قالوا: [فإن لم يجدْ؟].
قال: [فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة].

إذْ تَكَوَّن هذا النصّ من أربعة مقاطعَ –كمَا سبَقَ وأنْ ذكَرْنا– متمثّلةً فيما يأتي:

–المقطع الأول: [على كل مسلم صدقة].

عبارة موجزة بلفظ العموم، عموم الصدقة جميع المسلمين لأنّ اليسارة في الناس هي الأغلب، كما أنّ اليسير من الصدقة يجزئ، لم يُحَدّ فيها نصابًا ولا مقْدارًا مثل ما فعل في الفرض. (ابن أبي جمرة، 1434هـ/2013م، ص653)

–المقطع الثاني: [قالوا يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق].

تَكَوَّن هذا المقطعُ منْ سؤالٍ وجوابٍ، ارتباط دلالي بيْن مفصليْ هذا المقطع النصي. في هذا السؤال يبدو وكأنّ الصحابة فهموا من لفظ (الصدقة) العطيّة والمال فقط، فسألوا عمّنْ ليْس عنده شيء. (الشنواني، دت، ص151–152) بإسْنَاد الفعل المتعدِّي المجزوم بـ (لم) النافية إلى فاعله الضمير المستتر (هو) العائد على أيّ مسلم، مفعوله محذوف المقدَّر بـ (مالاً) يتصدّق به. فبيَّن لهم ρ الصدقة أعمّ وأشملُ ولوْ يكسب من عمل يده، فينتفع بالنفقة على نفسه، والتصدُّق على غيْره، وفي هذا الجواب النبويّ تفسيرُ المجْمل، وتخصيصُ العام، فقدَّم الصدقة بنفع النفس بالنفقة عليها قبل التصدّق على الآخرين، لأنّه من أكبر الصدقات أنْ يُزِيل حمله عن غيْره ويبْدأ بالذي هو أهمّ، وبعْد ذلكَ يتصدّق. (ابن أبي جمرة، 1434هـ/2013م، ص653–654)

–المقطع الثالث: [قالوا فإنْ لم يجدْ؟ قال يُعِينُ ذا الحاجة الملهوف].

هنا حلقةٌ أخْرَى منْ حلقات الحوار والتصْعِيد بالنزول مِنْ عَدَم إيجادِ المال للصدقة إلى العمل للانتفاع والصدقة، ومنه إلى حال عدم إيجاد العمل أصلاً أوْ العجز عنه. (عتر، 1434هـ/ 2013م، ، ص178. و الشنواني، دت، ص152)

فيأتي تبَعًا لذلك جوابه ρ مرتبطًا دلاليًّا بسؤالهم، إذ انتقلَ من أخذ المال إلى العمل لجمع المال إلى عملٍ لاَ علاقةَ له بالمال، وهَكَذا تتّخذُ الصدقة ملامحَ وجدانيةً نفسيةً أكثر منْ كوْنها كائنًا ماليًا للشعور والشفقة على ذا الحاجة الملهوف. (عتر، 1434هـ/ 2013م، ص178. وابن أبي جمرة، ص655–656) والوقوف إلى جانبه بالمعونة على ما هو فيه من شدّة وضيق.

–المقطع الرابع: [قالوا: فإنْ لم يجدْ ؟ قال فليعْمَلْ بالمعرُوف وليُمْسِكْ عنِ الشّر فإنّها لهُ صدقةٌ]. وهنا أيضا تصعيدٌ ثالثٌ مِنَ الخطاب إذْ تضمَّنَ هذا المقْطع تركيبًا يُوَازِي المقْطَع السّابق، ويَخْتلف عنْهُ في درجَة الإيحاء النفْسي ؛ لأنّ المتلقّي ازدادَ تعلُّقًا لمعرفة الجواب (قالُوا فإنْ لمْ يجدْ ؟). (عتر، 1434هـ/ 2013م، ص178–179) هذا هو سؤالهم–الصحابة–أيْ إنْ لم يستطعْ إعانَة الملْهُوف، فحُذِفَ مفْعُول (لم يجدْ) تقديره (إعانة ذا الحاجة الملهوف) لأنّ (يجدْ) بمعنى يقدِرْ أوْ يستطِعْ. (القسطلاني، ص38) فجَاءَ جوابُه ρ تسليةً للعاجز تمامًا عن الصدقة في مراتبها المذكورة سابقًا بالتوجُّه إلى عمَلِ الخيْر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإمساك عن الشرّ، وعدم الوقوع فيه. (الشنواني، دت، ص152)

فهذه المقاطعُ الأربعةُ شكّلتْ حَرَكاتٍ متنوّعةً، تُؤَكِّدُ الرحمة الإلاهيّة في تيسير الحصول على ثواب الصدقة بأفعالٍ مختلفةٍ ماليةٍ وجسديّةٍ ونفسيّةٍ، وبحركاتٍ خارجيةٍ نحْو الآخرين، وداخلية تُحَصِّنُ النفْس مِنَ الشَّر. تزكيةً لها وللمالِ .(عتر، 1434هـ/ 2013م، ص180)

فلقَدْ ساهَمَ في بناء الحديث النبويّ الشريف تلك الروابط النصية التي جعلت منه نصًّا متّسِقًا في مكوّنَاته ألْفَاظًا وتراكيب، منْهَا "الحذف" حيْثُ كانَ حضُورُه واضحًا وأثرُهُ بَيّنًا في تحقيق هذا الترابط النصيّ.

فحِينَ نقْرَأُ هذا الحديث النبويّ قراءةً نصيّةً فإنّنا واجدون "الحذف" في ثلاثة مواضعَ من النصّ مُوّزعةً على المقاطع الثلاثة المتوالية. الثاني والثالث والرابع على الترتيب في النص الحديثي، ويمكن تحديدها وتوضيحها فيما يأتي:

1.2.5 الحذف الأول:

حذف اسمي في قولهم: (فمَنْ لم يجدْ؟) إذْ حذف المفعول به للفعل المتعدّي (يجد) في الجملة الفعلية الاستفهامية الواردة في المقطع الثاني من النص التي استدعاها خطابه – ρ – بحثّهمْ علَى الصدقة في المقطع الأوّل .

فالبنيةُ العميقةُ لهذا القول قبْل التَّحْويل بالحذْف، التي مِنْ خِلالها يتمّ استرجاع العناصر المحذوفة انطلاقًا من المذكور السابق في المقطع الأوّل من النص، وهي كالآتي:

"فقالوا يا نبي الله فمن لم يجد مالا (أو عطية)؟

أداة جزم فعل+ فاعل(ضمير مستتر) مفعول به.

أما البنية السطحية للجملة كما هي منطوقة بالفعل:

فمن لم يجـــــــدْ ؟Ø

أداة جزم فعل+ فاعل(ضمير مستتر) العنصر المحذوف(مفعول به)

فالعنْصرُ المحْذوفُ إذنْ (مالاً) حذْفٌ اسْميٌ دلَّنَا عليه الدليل المقالي المذكور سابقا في المقطع الأوّل [على كلّ مسلم صدقة]، فلفظ (صدقة) لفظ عام دلّ على الاسم المحذوف (مالاً)، وهو من أهمّ ما تتحقّق به الصدقة ؛ فدلّ العامّ على الخاصّ، والمطلق على المقيّد، والنتيجة على الوسيلة.

فالارتباط وثيقٌ والصِلةُ قويَّةٌ بيْن السُؤَال المتأخِّر والأمر المتقدِّم، فالفعل (يجدْ) فعل متعد يقتضي مفعولا به مفهوم التقدير من المذكور السابق (صدقة). فالدليل هنا حقَّق المرجعيّة بيْن المذكور السابق والمحذوف اللاّحق، لا أقولُ في جملةٍ واحدةٍ بلْ بيْن جملٍ متعدّدةٍ في مقْطعيْن يرتبطُ الثاني منهما بالأوّل بواسطة هذه الأداة الاتساقيّة، ويمْكِنُ تمثيل ذلك في المخطّط الآتي:

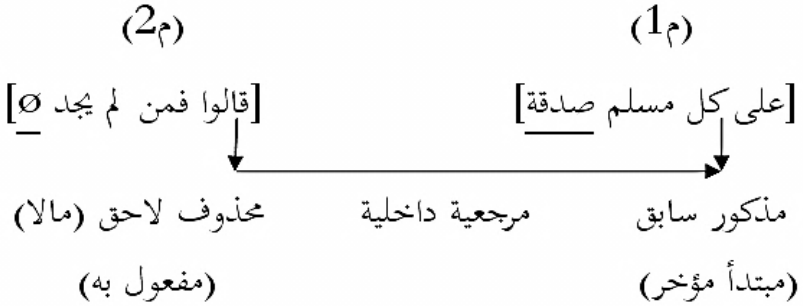

فهذا الحذف الاسميّ حقّق التكرار بالمعنى دون اللّفظ، فكانت بذلك استمرارية المعنى في النص مُحَقّقةً على الرّغْم مِنْ عدم إعادة ذكر اللفظ أو تكراره، فقدْ ذَكَر ابن الأثير « أنّ المعنى الزائد على اللّفظ المحذوف لابدّ له من تقدير لفظ آخر يدلّ عليه، وتلك الزيادة بإزاء ذلك اللّفظ المقدّر...لأنّ المعنى الزائد ظاهر، واللّفْظ الدالّ عليه مضمرٌ، وإذا كان مضمرًا فلا ينْطق به ؛ وإذا لم ينطقْ به فكأنّه لم يكنْ، وحينئذٍ يبقَى المعنى موجودًا، واللّفْظ الدالّ عليه غيْر موْجودٍ ». (ابن الأثير، دت، ص 266)

فضْلاً عن ذلك فقدْ ساهَمَ أيْضًا في تحقيق الترابط بين المقْطع الأوّل من النص المعبَّر عنْه بلفظٍ عامٍ، وأمر مطلق دون تفصيل أو تخصيص (صدقة)، (مسلم) مع المقطع الثاني الذي ينتظر من خلاله الصحابة معرفة الموقف أو المطلوب من المسلم إذا كان عاجزا عن الإتيان بما أمر به من صدقة. ولمّا كانت (الصدقة) هي محلّ العناية ومحْور الحديث كان حضورُها أيْضًا في المقْطع الثاني، لكنْ حضور ذهنيّ بعدم الذكْر، لا حضور لفظيّ بالإعادة والتكرار لمِا في عدم الذكر في هذا المقام من أفضليّة على الذكْر، نظرًا لمِا يُوَلِّدُه غياب اللّفْظ وحضور المعنى من ربط ذهنيّ برجوع المتلقّي إلى العنصر المذكور (صدقة) فيُقَدِّرَ بواسطته ما يمكنُ به ردْم فجْوة الحذْف (فمَنْ لمْ يجدْ Ø ؟)، الفجْوة التي تُحْدِثُهَا هذه العبارةُ المُوجَزة بنيةً المخْتصرة لفظًا بإسقاط المفعول به، ليكون هذا الإسقاط علامة على تماسك الجزء الثاني من النص بالجزء السابق له أكثر من علامة على اختلاله. (بن عبد الكريم، 2009م، ص393)

2.2.5 الحذف الثانيّ:

يُمْكِنُ تحديد موضع الحذْف الثاني في الحديث بتتبُّع التدرُّج الموجود في حلقاته الخطابيّة، والمنحى التصعيديّ والتوالديّ في تمفْصُلاته الحواريّة التي تتراوح بيْن السُؤَال والجوَاب، والجواب بالسُؤَال اللاَّحق لهُ.

فالمقَطْع الثَالثُ تضَمَّنَ حَذْفًا ثانيًا وهُو حذْفٌ اسميٌّ أيْضًا يتّضِحُ حضُورُه في الجملة الحواريّة الاستفْهاميّة الآتية: (قالُوا، فإنْ لمْ يجدْ ø ؟) .

إنّ معْرفة هذا الحذْف والوُصُول إلى فهْمِه يتأتَّى لنَا مِنَ الفرَاغ البنْيَويّ على حدّ قول محمد خطابي الذي نهتدي إلى ملئه اعتمادًا على ما وَرَدَ في المقْطَع الأوّل منَ النص. (خطابي، 2006م ، ص21) إذْ نفْتَرِضُ عنْصرًا سابقًا، وهو (عمَلاً) المصْدر المسبُوك منَ الفعل (يعمل)، فيُعَدُّ مصْدَرَ المعلُومة المفْقُودة، ودليلاً يرْشدُنا إلى العنْصر المحْذوف .

فَيُمْكِنُنا إذنْ توْضيح هذا الحذْف الاسميّ منْ خلال العنْصر المحْذوف وعلاقته بالعنْصر المذْكور في ما يأتي:

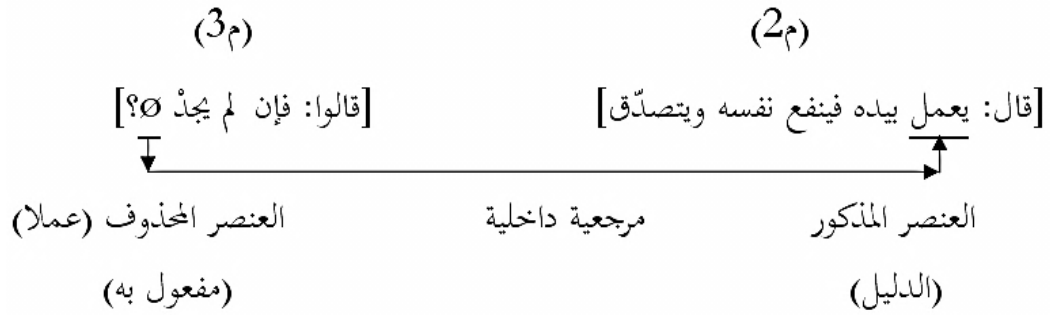

– إنّ هذا الحذف الاسميّ بدوْره كواحدٍ منْ أدوات اتّساق النص عَمِل على تحقيق تماسك نصي بيْن مقْطَعَيْن، المقْطع الثالث المتضمّن العنْصر المحذوف، والثاني المتضمّن العنْصر المذْكور(يعْمَل) الذي يُمَثِّلُ دليلاً مقاليًّا على العنْصر المحْذُوف (عملاً) في سياقه اللّغويّ . نظَرًا للدوْر الفَاعِل الذي يؤدّيهِ السّيَاقُ في تواصلية الخطاب، وفي انسجامه بالأساس، فلمْ يكُنْ لِيَكُون للخطاب المحذوفة بعْض عناصره قيمةٌ ومعنى لوْلا الإلمْام بسياقه. (خطابي، 2006م، ص56)

فهذا الحذْفُ يُحَقِّقُ مرْجعيّةً بيْن المذكور (يعمل)، والمحْذُوف (عَمَلاً) في جملتيْن مختلفتيْن في مقْطعيْن متواليين. كما حقَّقَ استمراريّةً دلاليّةً للنصّ باستمرار المعْنى (معْنى العمل للانتفاع والصدقة) عبْر تكْراره بالذكْر والحُضُور تارةً، والترْك والغياب تارةً أخْرَى. (عزة شبل،1430هـ/2009م، ص173)

– إنّ هذا الحذف الاسميّ لمْ يكُنْ علَى مسْتوَى الجمْلة الواحدة من النص، بل امتدّ كمَا قُلْنَا إلى أكْثر منْ ذلك، فكان العنْصر المحْذُوف عاملاً أساسيًّا للربْط بيْن أجْزاء النصّ النبويّ منْ خِلال ربْطِه بيْن المقْطَعيْن، فضْلاً عنْ دوْره في تفْعِيل الطاقة التأويليّة لدى المتلقّي باعْتماده علَى خصائص السياق لملْء

الفرَاغ. (محمد عبد الراضي،2010م، ص94) إذْ لا يمكنُ أنْ يكتملَ بناء النصّ اللغويّ، وفَهْم مضمُونه منْ غيْر تقدير المفعول به المحذُوف (عملاً) للفعْل (يجدْ).

3.2.5 الحذف الثالث:

يظهر الحذف الثالث في النص الحديثيّ في العبارة نفسها الواردة في المقطع الثالث (قالوا فإنْ لمْ يجدْ؟) ردُّ الصحابةُ علَى النبيّ ρ وسؤالهم إيّاهُ. المنْحَى التصْعيديّ والبناء التوالديّ في التركيب الحواريّ بيْنه ρ والصحابة الأجلاّء. إذْ يمُكن توضيح هذا الحذْف بالنّظر في البنية السطحيّة للجملة، ومنْ ثَمّة إعادتها إلى الأصْل باسْترجاع العنْصر المحْذُوف ووضْعه في موضعه المناسب في الجملة انطلاقًا من السياق اللغويّ الدالّ عليْهِ، فالتمفصُل الأوّل من المقطع الرابع يبدو متمثّلا في الشكل الآتي:

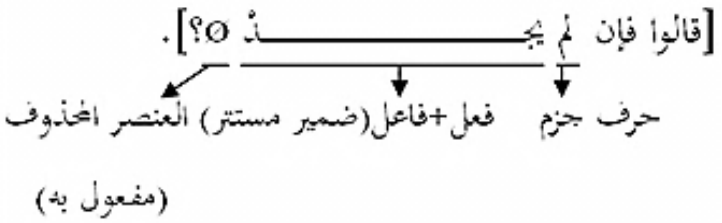

إنّ هذا القوْل هو البنية السطحيّة لهذا التمفْصُل الحواريّ من المقْطع الرابع، ونُلاَحظُ فيه موضع الإسْقَاط العنصر المحذوف أو الفراغ البنيويّ الذي يقتضي تقديرًا يناسبُ البنية التركيبيّة والغرض الدلاليّ الذي تحملُه العبارةُ المتضمّنة مَقُول القوْل.

إذَنْ فالبنيةُ العميقةُ التي تمُثّلُ خلفيةً لهذا البناء الظاهريّ قبْل إجراء هذا التحويل الحذْفيّ بحذف المفعول به يتّضحُ فيما يأتي:

(3م)

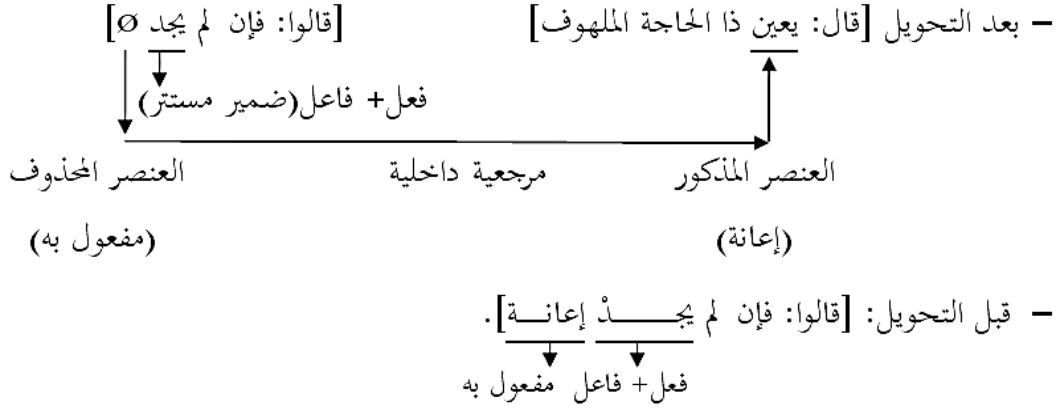

إنّ العنصر المحذوف المفعول به للفعل المتعدّي (يجدْ) الذي يعني (يستطع) أوْ (يقدر) لا يمكننا الوصول إليه وتقديره تقديرا دقيقا مناسبا للمعنى من غير النظر إلى الدليل المقالي المذكور في المقطع السابق (الثالث) المفهوم والمسبوك من قوله ρ (يعين ذا الحاجة الملهوف).

فهذا الحذف الاسمي الثالث في هذا النص النبويّ قد أسهم بشكل واضح في تلاحم المقطع الرابع من النص مع سابقه تلاحمًا لا يقلُّ دوْرًا عن غيره ممّا تؤدِّيه بقية أدوات الاتّساق الأخرى في نسيج النص وموضوعه ؛ فإذَا كانَ الارتباط الحاصل بيْن مكوّنات المقْطع الواحد هو ارتباطٌ دلاليّ في التمفْصُلات الحواريّة بيْن طرفيْ العملية التواصليّة (الرسول ρ) و(الصحابة)، الاستفهام وجواب الاستفهام، فإنّ الارتباط المحقّق بيْن المقْطع والمقْطع المجاور لهُ يقومُ على عَدّ جوابه ρ في نهاية كلّ مقْطَعٍ كمرجعيّةٍ تتضمّنُ الدليل المرشد الذي يتمّ بواسطته تفسير العنْصر المحذُوف من جملة مقُول القوْل الاستفهاميّة في المقْطع اللاّحق له، وبهذا يكون هذا الاتّساق النصي محقّقا بالفعل بواسطة هذا الحذْف الاسميّ الثالث عبر مرجعيته المحقّقة في مقطعيْن مختلفيْن تضمّنَا العنْصر المذكور السابق (الدالّ) والعنصر المحذوف اللاّحق (المقدّر).

6. خاتمة:

في خاتمة هذه الدراسة يمكن القول إذن أنّ هذا النصّ النبويّ الحواريّ في نمطه، الإرشادي في أهدافه ومقاصده اعتمد على الحذْف، وهو الحذْف الاسميّ الذي جاء موزّعا في مواضعه الثلاثة توزيعًا جَعَل مِنْ أجْزائه مترابطةً، يُعِيدُك اللاّحقُ منْها إلى سابقه. فبعْدَ استقرائنا وتحليلها لهذه الصُّور الثلاثة للحذْف يبدُو الدور الكبير والفعّال الذي لعِبَهُ في جعْل النصّ لبنةً واحدةً متماسكةً تماسكًا شكليًّا، وآخرَ دلاليًّا من خلال التسلسل القائم بين مقاطعه الأربعة، والتدرُّج المنتظم الذي بُنِيَ عليه الحوار القائم بيْن طرفيْ العملية التواصُليّة، إذْ وكَأَنَّ في كلّ توجيهٍ وأمْرٍ يصدُرُ عنْهُ ρ يسْتَدْعي عَقِبَه مباشرةً تعبير الصحابة عن حيرتهم وتساؤلهم عن الفعل المطلوب حين يتعذَّر أداء ذلك الأمر، وهكذا في كلّ مرّة يأتيهم الجواب ميسّرًا وأكثرَ سُهُولةً ممَّا سَبَقَهُ، والأجر والثواب حاصل بتلك الصدقة بأوجهها المختلفة، ودرجاتها المتفاوتة. (العسقلاني ،2012م، ص398) فالارتباط زيادة على كوْنه دلاليًّا منْ حيْثُ المعنى المفهوم تماسك الأمر والسؤال في المقطع الواحد، فهو أيْضًا قدْ تجاوز الربْط الجُمَليّ على مستوى المقْطع الواحد إلى الربْط المقطعيّ بيْن المقْطع والمقْطع الذي يليه مباشرةً. فكأنّه بذلك قد شكَّل سلسلة غيْر مرئية يتمّ الوصولُ إلى إدراك دوْرهَا الفعّال بحسْن النَّظر، وحصافة التقدير للمرجعية الداخليّة التي جمعت المحذوف الغائب، والمذكور القائم في السياق اللغويّ للحلقات التركيبية لهذا النص الحديثيّ.

كما أنّ الحذف المتعدّد في حضوره، المكثّف في مدلوله في هذا النص النبويّ ليُعَدُّ منْ أكْثر الروابط التي تُناسبُ النصوص الحواريّة أكثر من غيْرها من النصوص الأخرى، لاسيما أنّه جاء للإيجاز اعتمادًا على فَهْم المخاطَب (النبيّ) – المجيب والآمر – لسياق الحديث، وتجاوبه تواصليًّا مع المخاطِب (الصحابة) المتلقّي والسائل. (جمعان،2009م، ص393. وبدوي، 2015م، ص55)

7. قائمة المصادر والمراجع:

– القسطلاني. (1323ه). إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، ج3، ط7. مصر القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية بولاق.

– جمعان عبد الكريم. (2009م). إشكالات النص المداخلة أنموذجًا دراسة لسانية نصية, ط1. المملكة العربية السعودية الرياض: النادي الأدبي، المغرب الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

– الشاوش محمد. (1421ه/2001م). أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية "تأسيس نحو النص"، ج2، ط1. لبنان بيروت: المؤسسة العربية للتوزيع.

– السيوطي .(دت). الإتقان في علوم القرآن، دط. مصر: دار مصر للطباعة

– القزويني الخطيب. (2003م/1424ه). الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، ط1. لبنان بيروت: منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية.

– الزركشي. (دت). البرهان في علوم القرآن، ج3، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دط. مصر القاهرة: مكتبة دار التراث.

– شبايك عيد محمد. (دت). الحوار في الحديث النبويّ تراكيبه وصوره، دط. مصر القاهرة: دار حراء.

– ابن الأثير.(دت). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج2، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط2. مصر الفجالة القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

– محمد عبد الراضي أحمد، (2010م)، المعاير النصّية في القرآن الكريم، ط1، مصر القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

– مصطفى إبراهيم وآخرون. (1972م). المعجم الوسيط، ط2. مصر القاهرة: مجمع اللغة العربية الإدارة العامة للمعجمات في إحياء التراث.

– دي بوجراند روبرت. (1418ه/1998م). النصّ والخطاب والإجراء، تر تمام حسان، ط1. مصر القاهرة: عالم الكتب.

– البهنساوي حسام. (2003م/1423ه). أنظمة الربط في العربية دراسة في التراكيب السطحية بين النحاة والنظرية التوليدية التحويلية، ط1. مصر القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.

- ابن أبي جمرة. (1434هـ/2013م). بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري، ج1، تح وتع عادل أحمد إبراهيم، ط1. مصر المنصورة: مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع.
- الجرجاني عبد القاهر. (دت). دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ص146.
- العثيمين محمد بن صالح محمد بن صالح. (1425هـ). شرح رياض الصالحين، ج2، دط. السعودية: مدار الوطن للنشر مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثمانيين الخيرية.
- ابن بطال. (دت). شرح صحيح البخاري، ج3، ضبط وتعليق أبو تميم ياسر ابن إبراهيم، دط. السعودية الرياض: مكتبة الرشد
- البخاري. (1430هـ/2010م). صحيح البخاري، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، ط1. مصر القاهرة: دار ابن حزم.
- النووي. (1347هـ/1929م). صحيح مسلم شرح النووي، ج7، ط1. مصر القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر.
- حمودة طاهر سليمان. (1998م). ظاهرة الحذف في الدرس اللغويّ، دط. مصر الإسكندرية: الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع.
- الفقي صبحي إبراهيم.(1431هـ/2000م). علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، ج2، ط1. مصر القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- عزة شبل محمد.(1430هـ/2009م). علم لغة النصّ النظرية والتطبيق، ط2. مصر القاهرة: مكتبة الآداب علي حسن.
- العسقلاني ابن حجر.(2012م). فتح الباري، ج3، تخريج هاني الحاج، ط3. مصر القاهرة: المكتبة التوفيقية للطباعة.
- عتر نور الدين.(1434هـ/ 2013م). في ظلال الحديث النبويّ ومعالم البيان النبويّ، ط1. مصر القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
- ابن منظور. (1419هـ/1999م). لسان العرب، ج3، اعت وتص أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادة العبدي، ط3. لبنان بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي.
- خطابي محمد. (2006م). لسانيات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب، ط2، المغرب الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

- الشنواني. (دت). مختصر صحيح البخاري وبهامشه شرح الشنواني، دط. مصر القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي.
- عفيفي أحمد. (2001م). نحو النصّ اتجاه جديد في الدرس النحويّ، ط1. مصر القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- بدوي حنفي أحمد. (2015م). نظرات لغويّة في السنة النبويّة، ط1. المملكة العربية السعودية: مؤسسة الانتشار العربي.